
حكايات شعبية روسية
رسوم الفنان إيفان بيليبين



المحتويات







فَاسِيلِيسَا سِتُ الْحُسْنِ

كَانَ يَامَا كَانَ فِي إِحْدَى الْمَمَالِكِ تَاجِرٌ مِنَ التُّجَارِ . عَاشَ عِشْرِينَ عَاماً مَعَ زَوْجَتِهِ ، فَلَمْ يُنْجِبْ مِنْهَا سِوَى ابْنَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَاسِيلِيسَا سِتِ الْحُسْنِ. كَانَتْ فِي الثَّامِنَةِ مِنَ الْعُمْرِ عِنْدَمَا تُوُفِّيَتْ أُمُّهَا . وَقَبْلَ أَنْ تُتَوَفَّى الأُمُّ نَادَتْ ابْنَتَهَا ، وَأَخْرَجَتْ مِنْ تَحْتِ الْغِطَاءِ عَرُوسَةً وَأَعْطَتْهَا لَهَا وَهِيَ تَقُولُ :

— اسْمَعِي يَا فَاسِيلِيسُوشْكَا ! تَذَكَّرِي آخِرَ كَلِمَاتِي وَاعْمَلِي بِهَا . أُعْطِيكِ مَعَ بَرَكَاتِ الأُمِّ هَذِهِ الْعَرُوسَةَ . احْمِلِيهَا دَائِماً مَعَكِ وَلاَ تَجْعَلِي أَحَداً يَرَاهَا . وَعِنْدَمَا تَحِلُّ بِكِ مُصِيبَةٌ أَطْعِمِيهَا وَاسْأَلِيهَا النَّصِيحَةَ . فَبَعْدَ أَنْ تَأْكُلَ سَتَقُولُ لَكِ كَيْفَ تَتَغَلَّبِينَ عَلَى الْمَصَابِ .

ثُمَّ قَبَّلَتْ الأُمُّ ابْنَتَهَا وَأَسْلَمَتْ الرُّوحَ .

حَزِنَ التَّاجِرُ لِمَوْتِ زَوْجَتِهِ كَمَا هِيَ الْعَادَةُ ، ثُمَّ رَاحَ يُفَكِّرُ فِي الزَّوَاجِ ثَانِيَةً . كَانَ شَخْصاً مَرْمُوقاً فَلَمْ يُوَاجِهْ مُشْكِلَةً فِي الْعُثُورِ عَلَى عَرُوسٍ ، لَكِنَّهُ مَالَ أَكْثَرَ إِلَى إِحْدَى الأَرَامِلِ .

لَمْ تَكُنْ صَغِيرَةَ السِّنِ ، وَكَانَ لَدَيْهَا ابْنَتَانِ ، فِي سِنِّ فَاسِيلِيسَا تَقْرِيباً ، وَإِذَنْ فَهِيَ رَبَّةُ بَيْتٍ وَأُمٌّ مُجَرِّبَةٌ . تَزَوَّجَ التَّاجِرُ مِنَ الأَرْمَلَةِ ، وَلَكِنَّهُ خُدِعَ فِيهَا،إِذْ لَمْ يَجِدْ فِيهَا أُمًّا طَيِّبَةً لابْنَتِهِ .

كَانَتْ فَاسِيلِيسَا أَجْمَلَ حَسْنَاوَاتِ الْقَرْيَةِ ، فَغَارَتْ زَوْجَةُ الأَبِ وَابْنَتَاهَا مِنْ جَمَالِهَا ، وَأَثْقَلَتْ عَلَيْهَا بِالأَعْبَاءِ، لِكَي يَهْزُلَ بَدَنُهَا مِنَ الْكَدِّ وَتَسْوَدَّ بَشْرَتُهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالرِّيحِ . لَلَكِنَّ فَاسِيلِيسَا تَحَمَّلَتْ كُلَّ شَيْءٍ دُونَ تَذَمُّرٍ ، وَكَانَتْ مَعَ كُلِّ يَوْمٍ تَزْدَادُ جَمَالاً وَامْتِلاءً ، بَيْنَمَا تَزْدَادُ زَوْجَةُ الأَبِ وَابْنَتَاهَا هُزَالاً وَحِقْداً ، رَغْمَ أَنَّهُنَّ كُنَّ يَجْلِسْنَ عَاطِلاتٍ عَنِ الْعَمَلِ كَالسَّيِّدَاتِ الْمُعَزَّزَاتِ . فَكَيْفَ أَمْكَنَ أَنْ تَسْتَمِرَّ الحَالُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ؟ الْعَرُوسَةُ هِيَ الَّتِي سَاعَدَتْ فَاسِيلِيسَا . وَلَوْلاَهَا لَمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُؤَدِّيَ كُلَّ تِلْكَ الأَعْمَالِ . وَفِي الْمُقَابِلِ كَانَتْ فَاسِيلِيسَا تَحْرِمُ نَفْسَهَا مِنَ الأَكْلِ أَحْيَانًا وَتُقَدِّمُ لِعَرُوسَتِهَا أَفْضَلَ طَعَامِهَا . وَفِي الْمَسَاءِ ، بَعْدَ أَنْ يَهْجَعَ الْجَمِيعُ ، تُغْلِقُ عَلَى نَفْسِهَا غُرْفَةَ الْكَرَارِ الضَّيِّقَةَ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا ، وَتُطْعِمُ عَرُوسَتَهَا قَائِلَةً : « كُلِي يَا عَرُوسَتِي .. وَاسْمَعِي شَكَايَتِي .. أَعِيشُ فِي بَيْتِ أَبِي فَلاَ أَشْعُرُ فِيهِ بِأَيِّ فَرْحَةٍ. زَوْجَةُ أَبِي الشِّرِّيرَةُ تَسْعَى لإِبَادَتِي . دُلِّينِي كَيْفَ أَحْيَا وَمَا الْعَمَلُ .

وَتَأْكُلُ الْعَرُوسَةُ ثُمَّ تُعْطِيهَا النَّصَائِحَ وَتُخَفِّفُ عَنْهَا بَلْوَاهَا ، وَحِينَ يَحِلُّ الصَّبَاحُ تَكُونُ قَدْ أَنْجَزَتْ كُلَّ الأَعْمَالِ نِيَابَةً عَنْ فَاسِيلِيسَا ، فَلاَ يَبْقَى لِهَذِهِ إِلاَّ أَنْ تَجْلِسَ فِي الظِّلِّ وَتَقْطِفَ الأَزْهَارَ ، بَيْنَمَا تَكُونُ الأَرْضُ قَدْ حُرِثَتْ ، وَالْكُرُنْبُ تَمَّ سَقْيُهُ ، وَالْفُرْنُ أُشْعِلَتْ نَارُهُ . ثُمَّ تَدُلُّهَا الْعَرُوسَةُ عَلَى الْعُشْبِ الَّذِي يَحْمِيهَا مِنْ لَفْحِ الشَّمْسِ .كَانَتْ الْحَيَاةُ مَعَ الْعَرُوسَةِ هَنِيئَةً مَرِيــئَةً.

مَرَّتْ الأَعْوَامُ ، وَكَبُرَتْ فَاسيليسَا وَأَصْبَحتْ عَرُوساً ، وَرَاحَ الخُطَّابُ يَخْطِبُونَهَا ، غَيْرَ مُبَالِينَ بِابْنَتي زَوْجَةِ الأَبِ ، فَيَزْدَادُ حِقْدُهَا عَلَى فَاسيليسَا ، وَتَقُولُ لِلْخُطَّابِ « لاَ أُعْطِي الصَّغِيرَةَ قَبْلَ الكَبِيرَةِ » . وَبَعْدَ أَنْ تَصْرِفَ الْخُطَّابَ تَنْهَالُ ضَرْباً عَلَى فَاسيليسَا لِتَشْفي غَليلَهَا .

وَذَاتَ يَوْمٍ رَحَلَ التَّاجِرُ عَنْ بَيْتِهِ فِي غَيْبَةٍ طَوِيلَةٍ لِشُؤُونِ تِجَارَتِهِ ، فَانْتَقَلَتْ زَوْجَةُ الأَبِ لِلْمَعِيشَةِ فِي مَنْزِلٍ آخَرَ . وَكَانَتْ بِالْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْمَنْزِلِ غَابَةٌ عَذْرَاءُ كَثِيفَةٌ ، وَفِي فَسْحَةٍ فِي الْغَابَةِ قَامَ مَنْزِلٌ خَشَبِيٌّ تَعِيشُ فِيهِ سَاحِرَةٌ عَجُوزٌ . لَمْ تَكُنْ تَسْمَحُ لأَحَدٍ بِالاقْتِرَابِ مِنْ مَسْكَنِهَا ، وَكَانَتْ تَأْكُلُ النَّاسَ كَمَا تُؤْكَلُ الفِرَاخُ . وَبَعْدَ الانْتِقَالِ إِلَى الْمَنْزِلِ الْجَدِيدِ أَخَذَتْ زَوْجَةُ الأَبِ تُرْسِلُ فَاسيليسَا التَّعِيسَةَ إِلَى الْغَابَةِ لِقَضَاءِ بَعْضِ الْحَاجَاتِ . وَلَكِنَّ فَاسيليسَا تَرْجِعُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ سَالِمَةً غَانِمَةً ، إِذْ كَانَتْ الْعَرُوسَةُ تَدُلُّهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَلاَ تَجْعَلُهَا تَقْتَرِبُ مِنْ بَيْتِ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ .

وَحَلَّ الْخَرِيفُ . وَجَاءَتْ زَوْجَةُ الأَبِ فَوَزَّعَتْ عَلَى الْبَنَاتِ الثَّلاثِ وَاجِبَاتٍ مَسَائِيَّةً ، فَكَلَّفَتْ إِحْدَاهُنَّ بِنَسْجِ شَرِيطِ دَنْتَلاً ، وَالثَّانِيَةَ بِحِيَاكَةِ جَوْرَبٍ ، وَكَلَّفَتْ فَاسيليسَا بِغَزْلِ خُيُوطٍ . وَأَطْفَأَتْ الأَنْوَارَ فِي الْمَنْزِلِ كُلِّهِ ، وَتَرَكَتْ شَمْعَةً وَاحِدَةً مُشْتَعِلَةً فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَعْمَلُ فِيهِ الْبَنَاتُ . وَتَرَاكَمَ الْهِبَابُ عَلَى فَتِيلِ الشَّمْعَةِ فَقَامَتْ إِحْدَى ابْنَتَيِّ زَوْجَةِ الأَبِ لِتُزِيلَهُ بِإِبَرِ الْغَزْلِ ، وَلَكِنَّهَا بِنَاءً عَلَى أَوَامِرِ أُمِّهَا ، أَطْفَأَتْ الشَّمْعَةَ وَكَأَنَّمَا عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ . وَقَالَتْ الْبِنْتَانِ :

— وَمَا الْعَمَلُ الآنَ ؟ لاَ نَارَ فِي الْبَيْتِ كُلِّهِ ، بَيْنَمَا لَمْ نُنْجِزْ وَاجِبَاتِنَا . يَنْبَغِي الذَّهَابُ إِلَى

السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ لإِحْضَارِ نَارٍ مِنْ عِنْدِهَا .

فَقَالَتِ الإِبْنَةُ الَّتِي تَنْسِجُ الدَّانْتِلاَّ :

— الدَّبَابِيسُ عِنْدِي تَعْكِسُ الضَّوْءَ ، فَلَنْ أَذْهَبَ .

وَقَالَتِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيكُ الْجَوْرَبَ :

— الإِبَرُ عِنْدِي تَعْكِسُ الضَّوْءَ ، فَلَنْ أَذْهَبَ .

وَصَاحَتِ الْبِنْتَانِ :

— عَلَيْكِ أَنْتِ أَنْ تُحْضِرِي النَّارَ ! إِذْهَبِي إِلَى السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ !

وَدَفَعَتَا فَاسِيلِيسَا فَأَخْرَجَتَاهَا مِنَ الْغُرْفَةِ .

ذَهَبَتْ فَاسِيلِيسَا إِلَى غُرْفَةِ الكِرَارِ ، وَوَضَعَتِ الْعَشَاءَ الْجَاهِزَ أَمَامَ الْعَرُوسَةِ ، وَقَالَتْ لَهَا :

— كُلِي يَا عَرُوسَتِي ، وَاسْمَعِي شِكَايَتِي . إِنَّهُمْ يُرْسِلُونَنِي لإِحْضَارِ النَّارِ مِنْ عِنْدِ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ ، وَهِيَ سَوْفَ تَأْكُلُنِي .

أَكَلَتِ الْعَرُوسَةُ ، وَاشْتَعَلَتْ عَيْنَاهَا مِثْلَ شَمْعَتَيْنِ ، وَقَالَتْ :

— لاَ تَخَافِي يَافَاسِيلِيسُوشْكَا ، اذْهَبِي إِلَى حَيْثُ يَأْمُرُونَكِ وَلَكِنْ احْمِلِينِي دَائِماً مَعَكِ . طَالَمَا أَنَا مَعَكِ لَنْ تُؤْذِيَكِ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ .

اسْتَعَدَّتْ فَاسِيلِيسَا ، وَدَسَّتْ عَرُوسَتَهَا فِي جَيْبِهَا وَتَوَجَّهَتْ إِلَى الْغَابَةِ الْعَذْرَاءِ .

سَارَتْ وَهِيَ تَرْتَجِفُ . وَفَجْأَةً عَدَا بِجِوَارِهَا فَارِسٌ يَمْتَطِي حِصَاناً . كَانَ كُلُّهُ أَبْيَضَ ، وَمَلاَبِسُهُ كُلُّهَا بَيْضَاءُ ، وَحِصَانُهُ أَبْيَضُ ، وَلِجَامُ الْحِصَانِ أَبْيَضُ ، فَحَلَّ الْفَجْرُ فِي الْكَوْنِ .









وَوَاصَلَتْ فَاسِيلِيسَا سَيْرَهَا ، فَعَدَا فَارِسٌ آخَرُ عَلَى ظَهْرِ حِصَانِهِ . كَانَ أَحْمَرَ وَمَلاَبِسُهُ كُلُّهَا حَمْرَاءُ ، وَحِصَانُهُ أَحْمَرُ ، فَبَدَأَتِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ .

سَارَتْ فَاسِيلِيسَا اللَّيْلَ بِطُولِهِ وَالنَّهَارَ كُلَّهُ ، وَفِي الْمَسَاءِ فَقَطْ وَصَلَتْ إِلَى الْفَسْحَةِ الَّتِي فِي الْغَابَةِ حَيْثُ يَقُومُ مَنْزِلُ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ . كَانَ السُّورُ الْمُحِيطُ بِالْمَنْزِلِ مَصْنُوعاً مِنْ عِظَامٍ بَشَرِيَّةٍ ، وَعَلَى السُّورِ عُلِّقَتْ جَمَاجِمُ بَشَرِيَّةٌ ذَاتُ أَعْيُنٍ .

وَبَدَلاً مِنْ عَمُودَيِ الْبَوَّابَةِ قَامَتْ سَاقَانِ بَشَرِيَّتَانِ ، وَبَدَلاً مِنَ الْمَزَالِيجِ وُضِعَتْ ذِرَاعَانِ، وَفَمٌ بِأَسْنَانٍ حَادَّةٍ بَدَلاً مِنَ الْقِفْلِ . جَمَّدَ الرُّعْبُ أَطْرَافَ فَاسِيلِيسَا فَوَقَفَتْ بِلاَ حِرَاكٍ .

وَفَجْأَةً جَاءَ فَارِسٌ رَاكِضاً بِجَوَادِهِ . كَانَ أَسْوَدَ ، فِي ثِيَابٍ كُلُّهَا سَوْدَاءُ ، وَيَمْتَطِي جَوَاداً أَسْوَدَ . وَصَلَ إِلَى بَوَّابَةِ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ ثُمَّ اخْتَفَى كَأَنَّمَا انْشَقَّتِ الأَرْضُ وَابْتَلَعَتْهُ ، فَحَلَّ اللَّيْلُ . لَكِنَّ الظَّلاَمَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ انْقَشَعَ . فَقَدْ أَضَاءَتْ جَمِيعُ عُيُونِ الْجَمَاجِمِ عَلَى السُّورِ ، فَأَصْبَحَتْ فَسْحَةُ الْغَابَةِ مُنِيرَةً كَمَا فِي النَّهَارِ . كَانَتْ فَاسِيلِيسَا تَرْتَعِشُ هَلَعاً ، وَلَمَّا كَانَتْ لاَ تَدْرِي إِلَى أَيْنَ تَمْضِي فَقَدْ بَقِيَتْ فِي مَكَانِهَا .

وَفَجْأَةً سُمِعَتْ فِي الْغَابَةِ ضَجَّةٌ هَائِلَةٌ ، وَأَخَذَتِ الأَشْجَارُ تُطَقْطِقُ ، وَالأَوْرَاقُ الْجَافَّةُ تُخَشْخِشُ ، وَخَرَجَتِ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ مِنْ قَلْبِ الْغَابَةِ . كَانَتْ تَطِيرُ مُمْتَطِيَةً مِصْحَناً ، وَتُلَوِّحُ بِمِدَقَّةٍ ، وَتَكْنُسُ أَثَرَهَا بِمِكْنَسَةٍ . وَصَلَتْ إِلَى الْبَوَّابَةِ فَتَوَقَّفَتْ وَتَشَمَّمَتْ مَا حَوْلَهَا وَصَاحَتْ : إِفٍّ ، إِفٍّ ، يَا لَلْقَرَفِ ، أَشُمُّ رَائِحَةً رُوسِيَّةً ، مَنْ هُنَا ؟

اقْتَرَبَتْ فَاسِيلِيسَا مِنَ الْعَجُوزِ وَقَالَتْ وَهِيَ تَنْحَنِي بِخَوْفٍ انْحِنَاءَةً عَمِيقَةً :

— هَذِهِ أَنَا يَا جَدَّتِي ! ابْنَتَا زَوْجَةِ أَبِي أَرْسَلَتَانِي إِلَيْكِ طَلَبًا لِلنَّارِ .

فَرَدَّتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— حَسَناً ، إِنَّنِي أَعْرِفُهُما ، عِيشِي هُنَا وَابْقِي وَاعْمَلِي عِنْدِي ، وَعِنْدَئِذٍ أُعْطِيكِ النَّارَ . فَإِذَا رَفَضْتِ فَسَآكُلُكِ .

ثُمَّ خاطَبَتْ الْبَوَّابَةَ صَائِحَةً :

— يَا أَقْفَالِي الْقَوِيَّةَ انْفَتِحِي ، وَيَا بَوَّابَتِي الْعَرِيضَةَ انْفَرِجِي !

فَانْفَرَجَ مِصْرَاعا الْبَوَّابَةِ ، وَدَخَلَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ وَهْيَ تُصَفِّرُ ، وَتَبِعَتْهَا فَاسِيلِيسَا ، ثُمَّ انْغَلَقَتْ الْمَصَارِيعُ وَ الأَقْفَالُ . وَدَخَلَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ وَتَمَدَّدَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ لِفَاسِيلِيسَا: هَاتِي هُنَا مَا هُوَ فِي الْفُرْنِ ، فَأَنَا جَائِعَةٌ .

أَشْعَلَتْ فَاسِيلِيسَا شَظِيَّةً مِنَ نَارِ تِلْكَ الْجَمَاجِمِ الْمُعَلَّقَةِ عَلَى السُّورِ ، وَأَخَذَتْ تَسْتَخْرِجُ مَا فِي بَاطِنِ الْفُرْنِ وَتَضَعُهُ أَمَامَ السَّاحِرَةِ . كَانَ الطَّعَامُ يَكْفِي لِعَشْرَةِ أَشْخَاصٍ . وَمِنَ الْقَبْوِ حَمَلَتْ فَاسِيلِيسَا شَرَابَ الكُفَاسِ وَالْعَسَلَ وَالْجِعَةَ وَالنَّبِيذَ . فَالْتَهَمَتْ الْعَجُوزُ كُلَّ الطَّعَامِ وَشَرِبَتْ كُلَّ الشَّرَابِ ، وَلَمْ تَتْرُكْ لِفَاسِيلِيسَا سِوَى قَلِيلٍ مِنَ الْحَسَاءِ وَكِسْرَةَ خُبْزٍ وَقِطْعَةَ لَحْمٍ صَغِيرَةٍ . اسْتَلْقَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ لِلنَّوْمِ وَهِي تَقُولُ :

— اسْمَعِي ، عِنْدَمَا أَرْحَلُ غَداً نَظِّفِي الفِنَاءَ ، وَاكْنُسِي الْمَنْزِلَ وَجَهِّزِي الْغَدَاءَ ، وَافْرِشِي المِلاءَات ، وَاذْهَبِي إِلَى مَخْزَنِ الْغِلاَلِ فَخُذِي رُبْعَ قَدَحٍ مِنَ الْقَمْحِ وَنَقِّيهِ مِنِ الشَّوَائِبِ . حَذَارِ أَنْ تُهمِلِي فِي شَيْءٍ وَإِلاَّ أَكَلْتُكِ .

وَبَعْدَ هَذِهِ الْوَصَايَا انْطَلَقَ شَخِيرُ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ ، أَمَّا فَاسِلِيسَا فَوَضَعَتْ فُتَاتَ مَائِدَةِ الْعَجُوزِ أَمَامَ الْعَرُوسَةِ وَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ وَهِيَ تَقُولُ :





— كُلي يَا عَرُوسَتِي ، وَاسْمَعِي شِكَايَتِي .. السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ حَمَّلَتْنِي عِبْئاً ثَقِيلاً، وَتُهَدِّدُ بِأَكْلِي إِذَا لَمْ أُنْجِزْ كُلَّ شَيْءٍ .. سَاعِدِينِي !

فَقَالَتِ الْعَرُوسَةُ :

— لاَ تَخَافِي يَا فَاسِلِيسَا سِتَّ الْحُسْنِ .. هَيَّا تَعَشَّي وَصَلِّي وَنَامِي .. الصَّبَاحُ رَبَاحْ .

اسْتَيْقَظَتْ فَاسِلِيسَا مِنَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ فَرَأَتْ أَنَّ السَّاحِرَةَ الْعَجُوزَ اسْتَيْقَظَتْ قَبْلَهَا.وَنَظَرَتْ فَاسِلِيسَا مِنَ النَّافِذَةِ . كَانَتْ عُيُونُ الْجَمَاجِمِ يَخْبُو ضَوْؤُهَا . وَهَا قَدْ عَبَرَ الْفَارِسُ الأَبْيَضُ فَأَشْرَقَ الْفَجْرُ . وَخَرَجَتِ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ وَصَفَّرَتْ ، فَظَهَرَ أَمَامَهَا الْمِصْحَنُ وَالْمِدَقَّةُ وَالْمِكْنَسَةُ . وَمَرَقَ الْفَارِسُ الأَحْمَرُ فَطَلَعَتِ الشَّمْسُ . جَلَسَتِ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ فِي الْمِصْحَنِ وَغَادَرَتِ الدَّارَ وَهِيَ تُلَوِّحُ بِالْمِدَقَّةِ ، وَتَكْنُسُ أَثَرَهَا بِالْمِكْنَسَةِ . وَبَقِيَتْ فَاسِلِيسَا وَحْدَهَا ، فَتَفَقَّدَتْ بَيْتَ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ، وَأَدْهَشَتْهَا كَثْرَةُ خَيْرَاتِه ، وَوَقَفَتْ حَائِرَةً تُفَكِّرُ بِأَيِّ عَمَلٍ تَبْدَأُ . تَطَلَّعَتْ حَوْلَهَا فَإِذَا كُلُّ الأَعْمَالِ أُنْجِزَتْ ، وَكَانَتِ الْعَرُوسَةُ تَلْتَقِطُ آخِرَ شَائِبَةٍ مِنْ بَيْنِ حَبَّاتِ الْقَمْحِ . فَهَتَفَتْ فَاسِلِيسَا قَائِلَةً لِعَرُوسَتِهَا : شُكْراً لَكِ يَا مُخَلِّصَتِي . لَقَدْ أَنْقَذْتِنِي مِنْ بَلْوِي .

فَأَجَابَتْهَا الْعَرُوسَةُ وَهِيَ تَدْخُلُ فِي جَيْبِهَا :

— لَمْ يَبْقَ لَكِ إِلاَّ تَجْهِيزُ الْغَدَاءِ . جَهِّزِيهِ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ثُمَّ اسْتَرِيحِي قَدْرَ مَا تَشَائِينَ .

قُرْبَ الْمَسَاءِ أَعَدَّتْ فَاسِلِيسَا الْمَائِدَةَ وَجَلَسَتْ تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ السَّاحِرَةِ الْعَجُوزِ . وَحَلَّ الْغَسَقُ ، وَمَرَقَ وَرَاءَ الْبَوَّابَةِ فَارِسٌ أَسْوَدُ فَهَبَطَ الظَّلاَمُ الدَّامِسُ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ضَوْءٌ سِوَى بَرِيقِ عُيُونِ الجَمَاجِمِ . طَقْطَقَتِ الأَشْجَارُ وَخَشْخَشَتِ الأَوْرَاقُ ..

إِنَّهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ قَادِمَةٌ . فَنَهَضَتْ فَاسِيلِيسَا لاِسْتِقْبَالِهَا . سَأَلَتْهَا الْعَجُوزُ :

— هَلْ عَمِلْتِ كُلَّ شَيْءٍ ؟

فَقَالَتْ فَاسِيلِيسَا :

— تَفَضَّلِي وَتَحَقَّقِي بِنَفْسِكِ يَا جَدَّتِي .

وَتَحَقَّقَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزَ وَاسْتَاءَتْ ، لأَنَّهَا لَمْ تَجِدْ مَا تُؤَنِّبُهَا عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ : « طَيِّبْ ، حَسَناً » . ثُمَّ صَاحَتْ :

— يَا خَدَمِيَ الْمُطِيعِينَ ، يَا أَصْدِقَائِيَ الْمُخْلِصِينَ ، اطْحَنُوا قَمْحِي !

فَظَهَرَتْ ثَلاثَةُ أَزْوَاجٍ مِنَ الأَيْدِي ، وَالْتَقَطَتْ الْقَمْحَ ، وَحَمَلَتْهُ بَعِيداً عَنِ الأَعْيُنِ . وَأَكَلَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ حَتَّى الشَّبَعِ وَتَمَدَّدَتْ لِتَنَامَ ، وَمِنْ جَدِيدٍ أَصْدَرَتْ أَوَامِرَهَا لِفَاسِيلِيسَا :

— اعْمَلِي غَداً مَا عَمِلْتِهِ الْيَوْمَ ، وَعَلاوَةً عَلَيْهِ خُذِي مِنَ الْمَخْزَنِ بُذُورَ الْخَشْخَاشِ ، وَنَقِّيهَا بِذْرَةً بِذْرَةً مِنَ الشَّوَائِبِ الَّتِي أَلْقَاهَا فِيهَا أَحَدُ الأَشْرَارِ .

قَالَتْ الْعَجُوزُ ذَلِكَ وَاسْتَدَارَتْ إِلَى الْحَائِطِ وَعَلا شَخِيرُهَا . أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَأَخَذَتْ تُطْعِمُ عَرُوسَتَهَا . وَبَعْدَ أَنْ أَكَلَتْ الْعَرُوسَةُ قَالَتْ لَهَا كَمَا بِالأَمْسِ :

— صَلِّي للهِ وَنَامِي . الصَّبَاحُ رَبَاحْ . كُلُّ شَيْءٍ سَيُنْجَزُ يَا فَاسِيلِيسُوشْكَا .

وَفِي الصَّبَاحِ غَادَرَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ الدَّارَ فِي الْمِصْحَنِ مِنْ جَدِيدٍ . وَقَامَتْ فَاسِيلِيسَا وَالْعَرُوسُ بِإِنْجَازِ كُلِّ الأَعْمَالِ فَوْراً . وَعِنْدَمَا عَادَتْ الْعَجُوزُ وَتَفَحَّصَتْ كُلَّ شَيْءٍ صَاحَتْ :

— يَا خَدَمِي المُطِيعِينَ ، يَا أَصْدِقَائِي الْمُخْلِصِينَ ، اعْصُرُوا مِنْ بُذُورِ الْخَشْخَاشِ زَيْتاً .







وَظَهَرَتْ ثَلاَثَةُ أَزْوَاجٍ مِنَ الأَيْدِي وَالْتَقَطَتْ الْخَشْخَاشَ وَحَمَلَتْهُ بَعِيداً عَنِ الأَعْيُنِ . وَجَلَسَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ لِلْغَدَاءِ . وَوَقَفَتْ فَاسِيلِيسَا صَامِتَةً . فَقَالَتْ لَهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— لِمَاذَا لاَ تَتَحَدَّثِينَ مَعِي ؟ مَالَكِ تَقِفِــينَ كَالْخَرْسَاءِ !

فَرَدَّتْ فَاسِيلِيسَا :

— لَمْ أَجْرُؤْ ، وَلَكِنْ إِذَا سَمَحْتِ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شَيْءٍ .

فَقَالَتْ الْعَجُوزُ :

— اسْأَلِي وَلَكِنْ اعْلَمِي : لَيْسَ كُلُّ سُؤَالٍ يُصْلِحُ الْحَالْ ، وَمَنْ يَعْرِفُ كَثِيراً يَهْرَمْ سَرِيعاً .

فَقَالَتْ فَاسِيلِيسَا :

— أَنَا أُرِيدُ فَقَطْ أَنْ أَسْأَلَكِ يَا جَدَّتِي عَمَّا رَأَيْتُهُ . فَفِي طَرِيقِي إِلَيْكِ تَجَاوَزَنِي فَارِسٌ عَلَى جَوَادٍ أَبْيَضَ وَهُوَ نَفْسُهُ أَبْيَضُ ، فِي مَلاَبِسَ بَيْضَاءَ ، فَمَنْ هُوَ ؟ .

فَأَجَابَتْهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— إِنَّهُ يَوْمِي الْمُشْرِقُ .

— ثُمَّ تَجَاوَزَنِي فَارِسٌ آخَرُ عَلَى حِصَانٍ أَحْمَرَ ، وَهُوَ نَفْسُهُ أَحْمَرُ فِي مَلاَبِسَ كُلُّهَا حَمْرَاءُ ، فَمَنْ هُوَ ؟ .

فَأَجَابَتْهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— إِنَّهُ شَمْسِي الْجَمِيلَةُ .



— فَمَا مَعْنَى الْفَارِسِ الأَسْوَدِ الَّذِي تَجَاوَزَنِي عِنْدَ بَوَّابَتِكِ يَا جَدَّتِي ؟

فَأَجَابَتْهَا السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— إِنَّهُ لَيْلِي الأَسْوَدُ ، وَكُلُّهُمْ خَدَمِي الْمُخْلِصُونَ .

تَذَكَّرَتْ فَاسِيلِيسَا أَزْوَاجَ الأَذْرُعِ الثَّلاثَةَ وَلَكِنَّهَا صَمَتَتْ . فَقَالَتْ السَّاحِرَةُ الْعَجُوزُ :

— وَلِمَاذَا لاَ تُوَاصِلِينَ السُّؤَالَ ؟

فَقَالَتْ فَاسِيلِيسَا :

— يَكْفِينِي هَذَا ، أَلَمْ تَقُولِي : مَنْ يَعْرِفْ كَثِيراً يَهْرَمْ سَرِيعاً ؟

فَرَدَّتْ الْعَجُوزُ :

— حَسَناً أَنَّكِ لَمْ تَسْأَلِي إِلاَّ عَمَّا رَأَيْتِهِ خَارِجَ الْبَيْتِ وَلَيْسَ عَمَّا بِدَاخِلِهِ ! أَنَا لاَ أُحِبُّ هَتْكَ أَسْرَارِ الْبُيُوتِ ، أَمَّا ذَوُو الْفُضُولِ الزَّائِدِ فَآكُلُهُمْ . وَالآنَ أَنَا أَسْأَلُكِ : كَيْفَ تَتَمَكَّنِينَ مِنَ أَدَاءِ الأَعْمَالِ الَّتِي أُكَلِّفُكِ بِهَا ؟

فَأَجَابَتْ فَاسِيلِيسَا :

— بَرَكَاتُ أُمِّي تُسَاعِدُنِي .

فَقَالَتْ الْعَجُوزُ بِغَضَبٍ :

— اسْمَعِي إِذَنْ أَيَّتُهَا الإِبْنَةُ الْمُبَارَكَةُ ، اغْرُبِي عَنْ وَجْهِي ، لَسْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمُبَارَكِينَ !

وَشَدَّتْ فَاسِيسَا مِنْ يَدِهَا وَأَلْقَتْ بِهَا خَارِجَ الْفِنَاءِ ، وَنَزَعَتْ مِنَ السُّورِ جُمْجُمَةً بِعَيْنَيْنِ

مُشْتَعِلَتَيْنِ ، وَغَرَزَتْهَا فِي عَصًا وَأَعْطَتْهَا لَهَا قَائِلَةً :

— هَذِهِ هِيَ النَّارُ الَّتِي طَلَبَتْهَا لاِبْنَتَيْ زَوْجَةِ أَبِيكِ ، خُذِيهَا ، أَلَمْ يُرْسِلُوكِ مِنْ أَجْلِهَا ؟

انْطَلَقَتْ فَاسِيلِيسَا رَاكِضَةً فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ عَلَى ضَوْءِ الْجُمْجُمَةِ الَّذِي لَمْ يَنْطَفِئْ إِلاَّ مَعَ مَجِيءِ الصَّبَاحِ ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ إِلاَّ فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّالِي . وَعِنْدَمَا بَلَغَتْ الْبَوَّابَةَ أَرَادَتْ أَنْ تُلْقِي بِالْجُمْجُمَةِ وَهِيَ تَقُولُ لِنَفْسِهَا «لاَ شَكَّ أَنَّهُمْ فِي الْبَيْتِ لَمْ يَعُودُوا بِحَاجَةٍ إِلَى النَّارِ» وَلَكِنَّهَا سَمِعَتْ فَجْأَةً صَوْتاً أَجَشَّ صَادِراً عَنِ الْجُمْجُمَةِ : «لاَ تُلْقِي بِي ، خُذِينِي إِلَى زَوْجَةِ الأَبِ» .

تَطَلَّعَتْ فَاسِيلِيسَا إِلَى بَيْتِ زَوْجَةِ أَبِيهَا ، وَلَمَّا لَمْ تَرَ ضَوْءاً فِي أَيَّةِ نَافِذَةٍ ، قَرَّرَتْ أَنْ تَذْهَبَ بِالْجُمْجُمَةِ إِلَى هُنَاكَ . وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ يَسْتَقْبِلُونَهَا بِوُدٍّ ، وَأَخْبَرُوهَا أَنَّهُمْ ظَلُّوا بِلاَ نَارٍ مُنْذُ أَنْ رَحَلَتْ عَنْهُمْ ، إِذْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِشْعَالِهَا ، أَمَّا النَّارُ الَّتِي كَانُوا يَأْخُذُونَهَا مِنَ الْجِيرَانِ فَكَانَتْ تَنْطَفِئُ مَا إِنْ يَدْخُلُوا بِهَا إِلَى الْغُرْفَةِ . وَقَالَتْ زَوْجَةُ الأَبِ: « عَسَى أَنْ تَبْقَى نَارُكِ مُشْتَعِلَةً ! وَجَاءُوا بِالْجُمْجُمَةِ إِلَى الْغُرْفَةِ الْكَبِيرَةِ ، فَسَلَّطَتْ الْجُمْجُمَةُ عَلَى زَوْجَةِ الأَبِ وَبِنْتَيْهَا نَظَرَاتٍ مُحْرِقَةً حَاوَلْنَ الاِخْتِبَاءَ مِنْهَا وَلَكِنْ هَيْهَاتَ.

كَانَتْ الْعَيْنَانِ تَتْبَعَانِهِنَّ حَيْثُمَا وَلَّيْنَ . وَفِي الصَّبَاحِ تَحَوَّلَتْ زَوْجَةُ الأَبِ وَبِنْتَاهَا إِلَى قِطَعِ فَحْمٍ ، أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَلَمْ تُصَبْ بِأَذًى .

فِي الصَّبَاحِ دَفَنَتْ فَاسِيلِيسَا الْجُمْجُمَةَ وَأَوْصَدَتْ بَابَ الْبَيْتِ وَانْطَلَقَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَطَلَبَتْ مِنْ عَجُوزٍ لاَ أَهْلَ لَهَا أَنْ تُقِيمَ مَعَهَا . وَعَاشَتْ مَعَهَا فِي انْتِظَارِ

عَوْدَةَ أَبِيهَا . وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَتِ لِلْعَجُوزِ :

— أَشْعُرُ بِالضَّجَرِ يَا جَدَّتِي مِنْ قُعُودِي بِلاَ عَمَلٍ . إِذْهَبِي وَاشْتَرِي لِي كِتَّاناً مِنْ أَجْوَدِ الأَنْوَاعِ . فَلأَشْغَلْ نَفْسِي بِالْغَزْلِ .

وَاشْتَرَتْ الْعَجُوزُ كِتَّاناً جَيِّداً ، وَانْكَبَّتْ فَاسِيلِيسَا عَلَى الْعَمَلِ ، فَسَارَ بِسُرْعَةِ البَرْقِ ، وَخَرَجَ الْخَيْطُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا مُسْتَوِياً وَدَقِيقاً كَالشَّعْرَةِ الرَّفِيعَةِ . وَتَجَمَّعَ غَزْلٌ كَثِيرٌ ، وَحَانَ الوَقْتُ لِنَسْجِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا نَوْلاً يَصْلُحُ لِغَزْلِ فَاسِيلِيسَا وَلاَ أَحَداً يَقْبَلُ بِنَسْجِ الغَزْلِ . وَتَوَجَّهَتْ فَاسِيلِيسَا بِالسُّؤَالِ إِلَى عَرُوسَتِهَا فَأَجَابَتْهَا :

— هَاتِي لِي أَيَّ نَوْلٍ قَدِيمٍ ، وَمَكُوكاً قَدِيماً وَعُرْفَ حِصَانٍ ، وَسَأَصْنَعُ لَكِ مَا تُرِيدِينَ .

حَصَلَتْ فَاسِيلِيسَا عَلَى المَطْلُوبِ وَذَهَبَتْ لِتَنَامَ ، أَمَّا العَرُوسَةُ فَصَنَعَتْ خِلاَلَ اللَّيْلِ آلَةَ نَسِيجٍ رَائِعَةً . وَبِنِهَايَةِ الشِّتَاءِ أَتَمَّتْ نَسْجَ قُمَاشٍ رَقِيقٍ إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُ يَنْفُذُ كَالْخَيْطِ فِي ثُقْبِ الإِبْرَةِ . وَفِي الرَّبِيعِ بَيَّضُوا القُمَاشَ فَقَالَتْ فَاسِيلِيسَا لِلْعَجُوزِ :

— بِيعِي يَا جَدَّتِي هَذَا القُمَاشَ وَاحْتَفِظِي لِنَفْسِكِ بِالنُّقُودِ .

نَظَرَتْ العَجُوزُ إِلَى القُمَاشِ وَأَطْلَقَتْ صَيْحَةَ دَهْشَةٍ :

— لاَ يَا بُنَيَّتِي ، هَذَا القُمَاشُ لاَ يَلْبَسُهُ إِلاَّ القَيْصَرُ ، سَأَذْهَبُ بِهِ إِلَى القَصْرِ .

ذَهَبَتْ العَجُوزُ إِلَى القَصْرِ المَلَكِيِّ وَرَاحَتْ تَتَمَشَّى أَمَامَ النَّوَافِذِ فَلَمَحَهَا القَيْصَرُ وَسَأَلَهَا :

— مَا هِيَ حَاجَتُكِ أَيَّتُهَا العَجُوزُ ؟

فَأَجَابَتْهُ العَجُوزُ :







— مَوْلايَ يَا صَاحِبَ الجَلاَلَةِ . جِئْتُكَ بِبِضَاعَةٍ لَيْسَ لَهَا مَثِيلٌ ، لاَ أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَهَا عَلَى أَحَدٍ غَيْرِكَ .

وَأَمَرَ القَيْصَرُ بِإِدْخَالِ العَجُوزِ إِلى القَصْرِ ، وَمَا إِنْ رَأَى القُمَاشَ حَتَّى تَمَلَّكَهُ الإِعْجَابُ ، وَسَأَلَ العَجُوزَ :

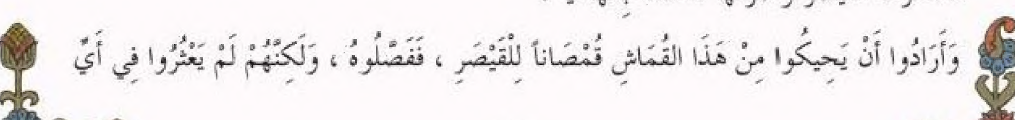
— كَمْ تُرِيدِينَ لِقَاءَهُ ؟

فَقَالَتْ العَجُوزُ :

— إِنَّهُ لاَ يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ يَا مَوْلاَيَ القَيْصَرَ ! لَقَدْ جِئْتُكَ بِهِ هَدِيَّةً .

فَشَكَرَهَا القَيْصَرُ وَصَرَفَهَا مُحَمَّلَةً بِالْهَدَايَا .

وَأَرَادُوا أَنْ يَحِيكُوا مِنْ هَذَا القُمَاشِ قُمْصَاناً لِلْقَيْصَرِ ، فَفَصَّلُوهُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْثُرُوا فِي أَيِّ



مَكانٍ عَلى خيَّاطَةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ بِهذَا الْعَمَلِ .

بَحَثُوا طَوِيلاً دونَ جَدْوَى ، وَأَخِيراً أَمَرَ القَيْصَرُ بِاسْتِدْعَاءِ العَجُوزِ، وَقَالَ لَهَا :

— إِذَا كُنْتِ قَدْ تَمَكَّنْتِ مِنْ غَزْلِ وَنَسْجِ هَذَا القُمَاشِ فَلْتَتَمَكَّني إِذَنْ مِنْ خِيَاطَةِ قُمْصَانٍ مِنْهُ .

فَقَالَتْ العَجُوزُ :

— لَسْتُ أَنَا التِّي غَزَلْتُهُ وَنَسَجْتُهُ يَا مَوْلاَيَ . إِنَّهُ مِنْ صُنْعِ ابْنَتِي بِالتَّبَنِّي .

فَقَالَ القَيْصَرُ :

— إِذَنْ فَلْتَخِطْهُ هِيَ .

وَعَادَتْ العَجُوزُ إِلَى البَيْتِ وَرَوَتْ لِفَاسِيلِيسَا كُلَّ مَا جَرَى .

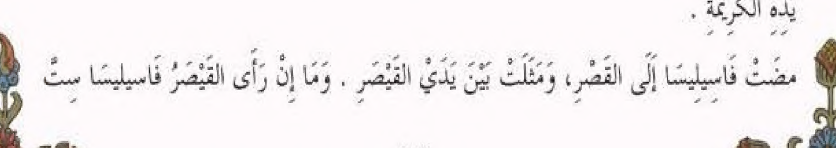
فَقَالَتْ لَهَا فَاسِيلِيسَا :

— كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ هَذَا العَمَلَ لَنْ تَصْنَعَهُ سِوَى يَدَيَّ .

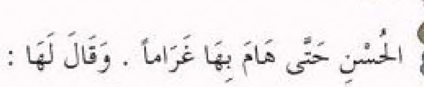
وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهَا غُرْفَتَهَا وَانْكَبَّتْ عَلَى العَمَلِ . وَرَاحَتْ تَخِيطُ بِلاَ كَلَلٍ ، وَسُرْعَانَ مَا أَتَمَّتْ خِيَاكَةَ اثْنَيْ عَشَرَ قَمِيصاً .

حَمَلَتْ العَجُوزُ القُمْصَانَ إِلَى القَيْصَرِ ، أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَاسْتَحَمَّتْ ، وَمَشَطَتْ شَعْرَهَا وَارْتَدَتْ فُسْتَانَهَا وَجَلَسَتْ بِجِوَارِ النَّافِذَةِ تَنْتَظِرُ مَاذَا سَيَحْدُثُ . وَرَأَتْ أَحَدَ خَدَمِ القَيْصَرِ قَادِماً إِلَى بَيْتِ العَجُوزِ ، وَقَالَ عِنْدَمَا وَصَلَ:

— مَوْلاَنَا القَيْصَرُ يُرِيدُ أَنْ يَرَى الصَّانِعَةَ الشَّاطِرَةَ التِّي صَنَعَتْ لَهُ القُمْصَانَ، وَيُكَافِئُهَا مِنْ يَدِهِ الكَرِيمَةِ .



مضَتْ فَاسِيلِيسَا إِلَى القَصْرِ، وَمَثَلَتْ بَيْنَ يَدَيْ القَيْصَرِ . وَمَا إِنْ رَأَى القَيْصَرُ فَاسِيلِيسَا سِتَّ



الحُسْنِ حَتَّى هَامَ بِهَا غَرَاماً . وَقَالَ لَهَا :

— لاَ يَا جَمِيلَتِي ، لَنْ افْتَرِقَ عَنْكِ ، سَتُصْبِحِينَ زَوْجَتِي .

وَهُنَا تَنَاوَلَ القَيْصَرُ يَدَيْ فَاسِيلِيسَا البَيْضَاوَيْنِ وَأَجْلَسَهَا إِلَى جِوَارِهِ ، وَأَقَامُوا حَفْلَ الزِّفَافِ . وَسَرْعَانَ مَا عَادَ أَبُو فَاسِيلِيسَا ، وَأَسْعَدَتْهُ قِسْمَتُهَا وَنَصِيبُهَا ، وَبَقِيَ إِلَى جِوَارِهَا . أَمَّا فَاسِيلِيسَا فَأَخَذَتْ العَجُوزَ إِلَيْهَا ، وَظَلَّتْ إِلَى آخِرِ العُمْرِ تَحْمِلُ عَرُوسَتَهَا فِي جَيْبِهَا .





